علينا أن نتذكّر، هنا أن الحاج نوفل قد مات، وأن ابراهيم كان يعتقد أن وليد مسعود قد مات أيضاً. ومع موتهما يشعر أن الأوان قد حان للاستيلاء على زوجة الأب. ولكن مريم، هنا، هي التي تقوم بعملية الإخصاء:

«أخذت مريم جانباً من ذراعها برفق خلف سيارتها. لكي لا تسمعني سوسن، وهمست لها:

ـــ مريم، أتتزوجيني؟

لم تندهش الظالمة ولو لثانية واحدة. بل ضحكت ضحكتها الآسرة، وربتت على خدي كأنني طفلها المحبّب، كوّرت شفتيها نحوي بقبلة موهومة، وبحلاوة لاذعة قالت: في يوم آخر يا إبراهيم، في يوم آخر! تصبح على خير!».

لقد عاملته كطفل محبّب، لتذكّره بأنها زوجة الأب، وضحكت وأي إحباط أشد للراغب بممارسة الجنس مع إمرأة، من أن تضحك في وجهه، وتربت على خده كأنه طفلها المحبّب.

إن هذا المشهد يتم أمام الجميع:

«ولذا حين نهضوا جميعاً ليخرجوا إلى سياراتهم، ورافقتهم إلى الطريق لأودّعهم واحداً واحداً، أخذت مريم جانباً من ذراعها...»

ألسنا أمام حلم نمطي حيث يرى الحالم نفسه، في وضع غير لائق، ولكنه يبدو وكأن الآخرين ـــ الحاضرين ـــ لا يلقون بالاً لما يحدث؟

إن هذا المشهد لا يدل فقط على نوعية العلاقة القائمة بين إبراهيم ووليد مسعود، ولكن دلالته تنسحب على الرواية بمجموعها. إذ هي كما سوف نشرح، حلم يقظة طفل، تتجسّد فيه تلك الرغبة التي يعبّر عنها هذا الحلم النمطي: الرغبة في العودة إلى فردوس الطفولة المفقود.

وهذه الرغبة المجنونة، للإستيلاء على مريم الصفّار، سبقتها عند ابراهيم، رغبة مماثلة نحو ريمة، زوجة وليد. يقول إبراهيم عن ريمة:

«كانت إمرأة هائلة، نحبها جميعاً، وأنا أودها بشكل خاص. يظهر أنني أُعجب بالنساء اللواتي فيهن مس من الجنون: العيون الزائغة، الشعر المرسل كالشظايا، الضحكة الهوجاء، مع الإيحاء بالقدرة العملاقة على التمتّع بالحب، بالجنس...».

وهو الشيء نفسه الذي يقوله عن مريم الصفّار:

«أرى فيها شيئاً من جنون... يستخرج الفوضوي من أعماقي...».

وهكذا نرى أن اختفاء الأب، لم يجعل الأمهات ممكنات. فكيف تنتهي علاقات إبراهيم النسائية؟

لقد هجر سوسن، الرسّامة. فكيف تعيده إليها؟ إنها ترسم صورة لوليد وتحملها إليه هدية. هنا يتقدّم للزواج منها، مصحوباً بمباركة الأب الغائب.